تطور البديعيات
في مدح الرسول

للأستاذ حامد حفنى داود الجرجاوى

بقية ماتقدم فى العدد الماضى

وفى القرن الحادى عشر نرى « البديعيات تحتضن التراث الأدبى » وذلك حين أخذت تسلك دورا خطيرا فى حياة الدراسة الأدبية عامة وحياة البلاغة بصفة خاصة . وهنا نرى أن المدائح النبوية التى حملت مشعل علوم البلاغة وأسهمت فى تطور فنون البديع وأخذت فى صورة أخرى تحتضن آثار المدرسة الأدبية حتى أصبحت هذه المدائح صناعة المتأدبين وطريقة السالكين لمذاهب الشعر . ومن هنا صارت تلك المدائح موضوعا للأدب ومحطا للأدباء وميدانا فسيحا لجولاتهم وطريقا ممهدا لمنافساتهم فى العصر التركى الذى شاع فيه تلثيا التراث الأدبى . فكانت المدائح النبوية فى القرن الحادى عشر أشبه شىء بالقيم الذى حافظ على تراثنا الأدبى والحصن الذى وجد فيه الأدب العربى حمى لزماره وموئلا لآثاره . كما قامت بدورها الخطير فى المحافظة على الذوق الأدبى : حافظت عليه حين كادت اللغة العربية تترك ، وحافظت عليه من التصنيع والتصنع اللذين ظهرا فى كثير من أغراض الشعر والنثر ؛ حتى كادا يودبان بقيمهما الفنية ولا سيما فى عصر ركدت فيه سوق الأدب وضعفت فيه عناية القوم بالفن والقريض ... ولولا هذه المدائح النبوية لتفاقم الخطب فى التراث الأدبى أكثر مما كان ، ولما وصل إلينا من أدب ذلك العصر التركى إلا كل مرذول ممجوج

ولقد عاون على تنافس القوم فيها وتفننهم فى نظمها — إذ ذاك — زهدهم الشديد فى التقرب إلى الحكام والأمراء الذين كانوا لا يحسنون فهم الشعر ولا يجيدون قيمة المديح أو يكافئون عليه بشىء ، فانقلب الشعراء يمدحون النبى الأعظم وقصروا مدحهم عليه فيما لجوا ضروب البديعيات وضاعفوا اهتمامهم بتحبيرها وتدبيجها . ومن ثم كانت هذه المحاولة مظهرا من مظاهر نضوج البديع فى ذلك العصر . فوضع شهاب الدين الحيدى المتوفى سنة ١٠٠٥هـ بديعية « تلميح البديع بمدح الشفيع » فى مائة وسبعة وعشرين بيتا كما وضع أبو الوفا المرضى المتوفى سنة ١٠٣٤هـ بديعية « الطراز البديع فى مدح الشفيع » فى مائة وثلاثة وثلاثين بيتا

* * *

ولما كان للبديعيات أثرها الخطير ومكانتها الأدبية الملحوظة فى المدرسة الأدبية كان من البديهى أن يتناولها القوم بالتعليق والشرح ، فظهرت فكرة « شروح البديعيات » فى القرن الثانى عشر ، كما ظهرت فكرة التشطير والتربيع والتخميس والتسبيع وغير ذلك من أنواع التشطير . فوضع صدر الدين الحسينى (١١٢٠هـ) بديعية « أنوار البديع فى أنواع البديع » فى مائة وثمانية وأربعين بيتا . وكان الناظم كلما وضع بيتا من أبيات بديعيته أتبعه بما قاله السلف قبله مبتدئا بصفى الدين . (١)

وعلى هذا المنوال نسج الشيخ عبد الغنى النابلسى المتوفى سنة ١١٣٤هـ فى بديعيته المسماة « نفحات الأزهار على نسمات الأسحار ، فى مدح النبى المختار » وهى بديعية طويلة تقع فى مائة وخمسين بيتا . كما وضع أخرى تقع فى مائة وواحد وخمسين بيتا تسمى « مليح البديع فى مدح الشفيع » . (٢)

وتلاهما قاسم البكرجى (١١٤٨هـ) فى بديعية تقع فى مائة وثلاثة وخمسين بيتا تسمى « حلية العقد البديع فى مدح النبى الشفيع » (٣) ، وعلى بن محمد القلمى (١١٥٨هـ) فى بديعيته المسماة « مفتاح الفرج فى مدح عالى الدرج » . (٤)

* * *

وفى القرن الثالث عشر ظهرت « بوادر التحول » والانتقال فى حياة البديع ، وقد كان النشاط السياسى فى مستهل ذلك القرن — وهو فجر النهضة — أثره القوى فى الحياة الفكرية ... (٥) فظهر جماعة من شعراء النهضة عالجوا البديعيات فى دواوينهم علاجات تجلت فيها روح إنسان يحاول أن يميز بين

(١) شذرات الذهب ج ٨ ص ١٩١ س ١٤ (بتصرف)
(٢) بديعية الحسين (انظر ٣٢٣ بلاغة)
(٣) انظر ٣٠٤ بلاغة ، ٢٠٤ بلاغة .
(٤) بديعية البكرجى ... ٢٧٣ بلاغة مخطوط .
(٥) بديعية القلمى ... ٧٢٨ بلاغة مخطوط .

يومه وأمسه ... ونجح بعض الشعراء الذين آمنوا بما كان يخالجهم من ضرورة إلى التجديد ، منهم محمود صفوت الساعاتي (١٢٩٨ هـ) إذ نظم بديميته سنة ١٢٧٥ هـ في مائة واثنين وأربعين بيتا معارضا بها بديمية ابن حجة الحموي ، وعني بشرحها المرحوم عبد الله باشا فكري ناظر المعارف العمومية في ذلك الوقت . (٦)

وفي أوائل القرن الرابع عشر تبلبلت ألسنة المتأدبين بين «التقليد والتحرر» : بين المذهب التقليدي الذي ورثوه ومذهب التحرر الذي نودي به في عصر النهضة

فمن البديعيين جماعة غلبت على أنفسهم الروح التقليدية فنظموا البديعيات على الطريقة التي نظم عليها من سبقوهم وذكروا كل ما وصل إليه توليد القدماء والمتأخرين والمحدثين من فنون البديع . ومن هؤلاء محمد أمين العمري المتوفى سنة ١٣١١ هـ ومحمد بدر الدين الرافعي المتوفى سنة ١٣١٢ هـ . وقد انتهى تطور البديعيات عند هذا الأخير فبلغ مجموع ما أورده من فنون البديع مائتين وستة ذكرها في مثلها من الأبيات

ومنهم من تخلص من رقبة التقليد ومضى في ركاب المتحررين ، فظهرت آثار التجديد فيما نظمه من بديعيات ، ومن هؤلاء حسن حسني الطويراني التركي (١٣١٥ هـ) وطه الجزائري (١٣٤١ هـ) وأمير الشعراء أحمد شوقي بك المصري (١٣٥١هـ)

وقد كان طريق هؤلاء الشعراء وعرا محاطا بالصعاب ؛ ذلك لأن التحرر من التقليد الموروث لم يكن بالشيء اليسير في الحياة الأدبية ، فيصعب على النفس زواله سريعا . لذلك كان علاجه أمرا صعبا ، وكان شأن المتحررين شأن من يسلك طريقا لا يعرف كنهه أو يحيط بمجاهله ؛ فهو يهتدي تارة ويضل أخرى . ولعلك حين تقرأ قصيدة « نهج البردة » لشوقي بك — وهو آخر هؤلاء المتحررين — تلمس من كثب مبلغ ما وصل إليه شعراء النهضة من تبلبل بين « المذهب التقليدي القديم » و « المذهب التحرري الحديث » . ولعلك وقد أوتيت حظا من نفاذ الفكر وبسطة من الذوق تلمس — وأنت تقرأ قصيدة نهج البردة — معالم ما وصلت إليه البديعيات من تطور ، تلمس كل ذلك في ثنايا هذه القصيدة :

« ١ » فهو حين يلتزم بحر البسيط وقافية الميم — وهما قدر مشترك في سائر البديعيات — ترى فيه شخصية الفذ الذي لم يستطع أن يتخلص من ربقة التقليد

« ٢ » وهو حين يرسل الفنون البديعية بغير قصد ملموس أو تكلف ممقوت يستند عليه في إيرادها ويزمع فيه إلى سردها — تلمس فيه شخصية المتحرر الصادق في تحرره

هكذا كان ناظمو البديعيات في القرن الرابع عشر ، ما كانوا يسيرون على قدمين من التقليد والتحرر . وقد يبدو لك في ذلك بعض التناقض . وليس ذلك من التناقض في شيء . وإنما هو مرحلة التطور والانتقال من القديم إلى الحديث . كان لا بد للبديعيات من أن تمر بها في عصرنا هذا ، حين تم فيه امتزاج العنصر القديم بالعنصر الحديث . فلم يستطع الناظمون بعد أن يتخلصوا من القديم كله ، كما لم يستطيعوا أن ينهضوا بكل ما ينبغي عليهم من تحرر . لذلك بقيت معالم التقليد في بحر البسيط وقافية الميم كما هي — وهي الحدود التي لم يستطع أحد من الشعراء أن يخرج منها — وظهرت معالم التحرر في طريقة العرض والاختيار وعدم التقيد بسرد فنون معينة من البديع

وقد أدرك المويلحي شيئا من هذا الذي ذكرناه حيث قال : « ولقد وفق بحمد الله شاعرنا أحمد شوقي إلى سلوك هذا السبيل في شعره فلم يقتصر على فرض القريض فيما تجري عليه الأحوال في عصرنا الحاضر بل سار على نهج المتقدمين وانتحى مناحيهم في فنون الشعر واقتدى بهم هذه في هذه القصيدة مما يسمونه بالبديعيات في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم . (١)

وبعد فهذه مراحل تطور البديعيات النبوية التي تحدثت عن نشأتها في العام الماضي أوضحت لك فيها ما أفدناه من تطور فنون البديع حتى أصبحت مائتين وستة من الفنون . ولكننا لم نجد بعد أمير الشعراء شاعرا آخر يعود بنا إلى هذا التقليد الكريم في شعره . وإنا لمنتظرون ما يعز بعد ذلك من تطور *

عاصم عفيفي وعزو الجرجاوي

---

(٦) تاريخ البديع لصاحب هذا المقال ص ١٤٨ ، ١٤٩ مخطوط

(٧) ديوان الساعاتي ... ومقدمته للمنفلوطي ص : ٤ ، ٩٦

(١) نهج البردة ومقدمة المويلحي ص : دس : ٨

* أرجيء حديثي عن « بلاغة البديعيات » إلى العام القادم .